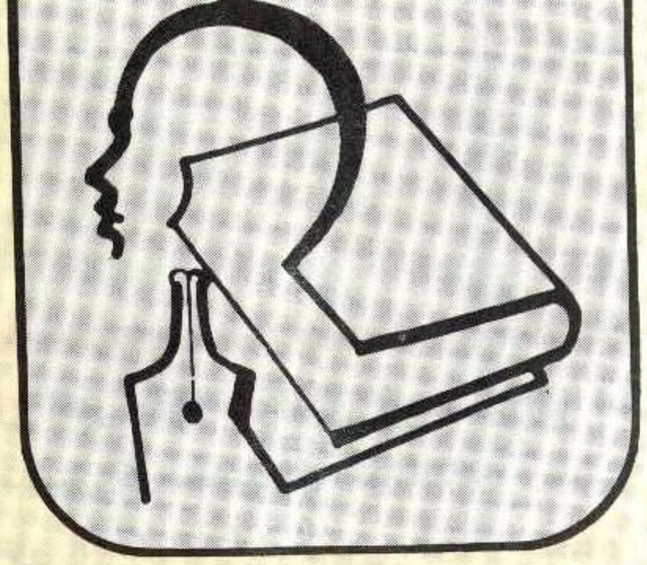

عالم وكتاب

الزجاج وكتابه:

□□ لا يزال التفسير اللغوي فصلاً غير مستوفى في مكتبتنا العربية ، ولا يزال في تراثنا التفسيري عديد من كتب التفسير اللغوي في حاجة إلى من يحققها ويشرحها ، أو على الأصح نحن في حاجة إليها محققة مشروحة ، لأنها تمدنا بالتفسير واللغة في وقت واحد ، إننا منذ أواخر القرن الماضي ، ومنذ ظهرت بيننا المطابع واتجهنا إلى بعث تراثنا العلمي أحيينا كثيراً من كتب التفسير القرآني وكثيراً من كتب النحو ، ولم نتجه إلى كتب التفسير اللغوي ، وكنا نقرأ في كتب التفسير آراء كبار النحويين واختلافاتهم في توجيه الآيات القرآنية لغة وإعراباً ومعاني فنكتفي بهذا النقل .. □□

ولا ندري إن كانت هذه الآراء عرضت في كتب التفسير أو كتب النحو ، أو ربما لم يخطر ببالنا أن لهؤلاء كتب تفسير ، وكان من عجيب الأقدار أن معظم كتب التفسير اللغوي كانت مفقودة أو ناقصة ، وكان الحصول على نسخة كاملة من كتبها يستدعي مجهوداً كبيراً ومشقة ، ونحن لا ننسى أنه فضلاً عما أصاب تراث المسلمين العلمي من الإغراق والإحراق في الشرق والغرب ، من التتار في بغداد والفرنجة في إسبانيا ، نقل السلطان سليم العثماني مكتبات مصر إلى الآستانة ، فكنا في عصر الطباعة نتصيد نسخ الكتاب وأجزاءه من هنا وهناك فلا يتيسر كماله إلا بمشقة ، واتجهت العناية إلى التفسير الخالص ولم تتجه إلى تفسير اللغويين .

وقد كان **المستشرقون أبَرَّ منا بهذه المكتبة التفسيرية فبذلوا جهداً في استنساخ أو نقل ما علموا من كتبها ، ولكن لم يكن من الميسور لهم شرحها وتحقيقها لعجزهم عن شرح الآراء النحوية أو قواعد اللغة والبلاغة ، وهذا أمر طبيعي لهم إذ هم غرباء عن العربية ، وأذكر أني ذكرت مرة أمام المستشرق الانجليزي الكبير** « **آربري** » أن زميله « **جولد زيهر** » **- المستشرق الهولندي المجري -** فاته حين عرض طرق التفسير الإسلامي أن يتحدث عن كتب التفسير اللغوي : فقال : إنه لم يتركها عن غفلة ولكنه يدرك أنه لا يستطيع فهم هذه الكتب ثم الحكم عليها وعرضها ، ومع ذلك جمعوا منها ما لم نجمع .

وخطا الأستاذ **فؤاد سزكين** الخطوة الجادة الأولى حين أخرج كتاب « **مجاز القرآن** » **لأبي عبيدة - معمر بن المثنى - محققاً مشروحاً ، وساعده على عمله ما في مكتبات الآستانة من مخطوطات**[1] ، **وبعد ذلك بمدة طويلة عهدت دار الكتب المصرية إلى ثلاثة من علماء اللغة والنحو بمصر بتحقيق كتاب** « **معاني القرآن** » للفراء ، فأخرج في ثلاثة أجزاء ، ثم هيأت لي المقادير والعناية الإلهية أن أعثر على نسخة كاملة ، أو مجموعة من المتفرقات التي تكون نسخة كاملة من كتاب « **معاني القرآن وإعرابه** » الذي نحن بصدده .

وقد كان للأخ الوفي المخلص لدينه **الدكتور (لنجس Lengs)**[2] ، فضل لا أنساه له في مساعدتي للحصول على هذه النسخة ، فجزاه الله عن الإسلام والعربية كل خير ، وقد كان (حين كنت أنا بانجلترا) مديراً للقسم الشرقي من المتحف البريطاني ، واستطاع بحكم منصبه أن يتصل بعدة جهات حتى اكتمل الكتاب كله ، وصور لي ما في المتحف منه بأجر زهيد ، ومن تقدير هذا المجهود أن **الدكتور نكسون** مدير الدراسات الشرقية في جامعة لندن إذ ذاك ، ذهب إليه بنفسه ليشكره ، واحتفظ للمدرسة الشرقية الأفريقية بصورة منه ، وقال : إننا ننتظر تحقيقك ، وكان معه زميل له (**هو الذي شارك في مناقشتي يوم امتحاني**) أبدى رغبة قوية أن أشاركه في إعادة تحقيق كتاب

بقلم : الدكتور عبد الجليل شلبي

معاني القرآن وإعرابه

الفراء ، وكان قد صدر منه جزءان ، لا أدري لماذا لم يسترح لهما ، وكان قد ألقى بنفسه في مغامرة لعلها الأولى من مستشـرق ، وهـي : تحقيق وشـرح « **إعراب القرآن** » لأبي جعفر النحاس ، ولست أدري ما فعل بعد ، ولكن هذا يعكس صـورة مصغـرة من عنـايـة المستشرقين بكتبنا اللغوية ؛ وقد كان لعـدد من اللغويـين والنحويـين كتب تفسيرية كلها تحمل اسم « **معـاني القرآن** » ولم يحقق منها فيما أعلم غير هذه الكتب الثلاثة .

وقد نال كتب التفسير اللغوي حظ الأديب كمـا يقولـون ، هذا مـع أن أصحابها أخرجوها وهم في ثراء وبحبوحة من العيش ، **فالدكتور سزكين** بعد أن أخرج كتاب « **مجاز القرآن** » ونال به درجة الماجستير ، ولّى وجهه شطر حقل آخر غير هذا الحقل ، أما عن كتاب الفراء ومحققيـه ، فقد أخـرج ثلاثتهم أول أجـزائـه ، ومـات واحـد منهم عقب إخـراجه ، وأخـرج الآخـران الجـزء الثـاني ، ومات واحـد منهم أيضاً ، وأخرج العضو الثالث آخر الأجزاء ، وأدركه الموت بعد إخراجه .

وأما كتاب الزَّجَّاج الذي أنفقت في سبيله ما أنفقت من الجهد والمال فقد قَيَّضَ القدرُ لنَصَبِي وَوَصَبِي - كما يقول **الحـريـري** - أن طلبـه **الشيـخ عبد الحليم محمود رحمه الله** شيخ الأزهر الأسبق لينشره ضمن سلسلة من التراث كان يقوم بنشرها على نفقة أحد المحسنين ، فقد ظهر جزءان من الكتاب في طبعة مشحونة بالأخطاء ، إذ لم أكن في هذا الوقت بالقاهرة ، ولم أشرف على تصحيحه ، ثم نفد المبلغ المرصود ووقف الكتاب عند هذا الحد ، وما زالت الأجزاء الباقية تنتظر من ينفق عليها لإخراجها ..

المؤلـف

وأود قبل الحديث عن الكتاب أن أذكر لمحة من حياة مؤلفه ، فهو **أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل** ، غلب عليه لقب **الزَّجَّـاج** ، لأنه كان يحترف خراطة الزجاج ، وقد وصفه مترجموه بالتقوى والورع وحسن الخلق ، وكان حنبلي المذهب ، وحين حضرته الوفاة سئل عن عمره فعقد أصابعه يشير أن عمره سبعون عاماً ، وهو توفي سنـة ٣١١هـ ، وكان آخر ما نطق به « **اللهم احشـرني عـلى مـذهب أحمـد بن حنبـل** » ، وهو عصـامي في نشأتـه وتعليمه ، كان كسبه من خراطة الزجاج درهمـاً ودانقين ، أو درهمـاً ونصف الدرهم ، وهو كسب ضيق جداً ، ولكن نفسه تاقت إلى درس النحو فانضم إلى حلقة ثعلب - **أبي العباس أحمد بن يحيىٰ** - وهو كوفي كان قد نزح إلى بغداد ، ولما قدم **المبرد** ، وهو بصري ، استولى على لب **الزَّجَّاج** وشاقه أن يدرس عليـه ، ولكن **المبرد** لم يكن يـدرس إلا بأجر ، ولا أجرة إلا على قـدرها ، وكان دخل **الزَّجَّاج** كله لا يكفي لشيء ، فطلب من **المبرد** أن يعلمه أحسن تعليم على أن يدفع له درهماً واحداً كل يوم ما امتدت حياتهما ، سواء احتاج لتعلم أو استغنى ، وقبل الأستاذ الطلب وبر التلميذ بالعهد .

وأعجب **المبرد** ذكاؤه وعلمه وجده فكان يخصه بنصائح علميـة ، وربما رفض إلقاء الدرس إذا غاب ، ثم زكاه لدى ذوي الثراء والجاه ليكون معلماً لأولادهم ، فكان ذلك فاتحة رزقه ، ثم اختير معلماً **للقاسم بن عبيد بن وهب** ، وزير المعتضد ، وكان القاسم وزيراً أيضا بعد أبيه ، وكان يحابي أستاذه **الزَّجَّاج** ولا يقبل أوراقاً إلا بخطه .

وعُرِفَ **الزَّجَّاج** بذكائه وعلمه ، وكان له من ذلك دخل واسع وثراء ، وحين أراد المعتضد شرحاً وتبسيطاً لكتاب « **جامع النطق** » الذي عمله لـه محبره **ابن النديم** عرضه على إمامي النحو **ثعلب والمبرد** ، فأبدى كل منهما اعتذاراً ، وقام **الزَّجَّاج** بهذا العمـل ، فأعجب الخليفة ، ونال **الزَّجَّاج** من ورائه رزقاً وشهرة .

الكتـاب

أما كتابه « **معاني القرآن و إعرابه** » فقد أخرجه وهو في قمة نضجه ، وبعد أن اكتمل علمه وأصبح ذا مذهب نحوي وآراء خاصة به في الإعراب واللغة ، شرع في كتابته سنة ٢٨٥هـ ، وأتمه سنة ٣٠١هـ ، فاستغرق تأليفه ستة عشر عاماً .. وهي زمن طويل ، ويبدو أنه كان يمليه ويُدَرِّسُه ، كما يبدو أنه درَّسه غير مرة ، وهو أهم كتاب قامت عليه شهرته .

امتاز هذا الكتاب عن أخويه - **مجاز**

□ خطا فؤاد سزكين الخطوة الجادة الأولى حين أخرج كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى محققاً مشروحاً ..

□ استغرق تأليف كتاب معاني القرآن ستة عشر عاماً ..

أبي عبيدة ، ومعاني الفراء ـ ببسط تفسيراته اللغوية وإفاضته في بيان أوجه الإعراب ، وبتعرضه لمسائل أخرى غير لغوية ، فقد تحدث بإفاضة عن الميراث وعن الطلاق والوصية ، ودفع آراء الرافضة والمشبهة ، ووضح مذهب أهل السنة .

وكان له رأي في الاشتقاق طبقه في هذا التفسير ، فهو يرى أن الكلمات التي تشترك في كل الحروف أو معظمها لابد أن تكون لها جميعاً معنى أساسي أصيل تدور كل معانيها عليه ، وقد طبق هذا المبدأ في تفسيره ، فلدى كل كلمة لغوية في القرآن يبدأ بشرحها ، ثم يبين المعاني المتفرعة من المادة الأصلية ، والصلة التي تربط الفروع بالأصل ، فيقول مثلاً : **الصلاة من الصلوة : وهي مؤخر البعير أو الفرس ، وهي ضد الجلوة ، وهي مقدم الشيء ، ومن هنا سمي السابق مجلياً ، وسمي الذي يليه مصلياً ، أي : تابعاً للمجلي ولاحقاً له ، ويقولون : صلاه ، أي : تبعه ولحقه ، وصلى النار : دنا منها ، وصلوه الجحيم : ألحقوه بها .. وهكذا ، والحق أنه بارع جداً في هذا التحليل ، كما هو موفق في اختيار الشواهد الشعرية التي يؤيد بها شرحه ، وبهذا كان كتابه قاموساً لغوياً واسع الجوانب شرحاً وشواهد .**

أما في **الإعراب** فهو حريص على إعراب الكلمات التي بها غموض ، وحين يعرب الجملة يبين الأوجه العديدة المحتملة التي يمكن أن تكون عليها ، ويبين وجهة كل إعراب ، والمعنى الذي تنتهي إليه : فإذا كان ثم قراءة ذكرها ، وإذا لم تكن قراءة قال : **هذا وجه إعرابي ، ولكن لا تقرأنَّ به إلا إذا ثبتت به قراءة صحيحة** .

وفي بحثي عن أصول شواهده الشعرية ومراجعها والمناسبة التي قيلت فيها لاقيت متاعب ومشقة ، **ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة** .

وللزَّجَّاج بجانب منهجه اللغوي وقفات في معارضة الملحدين وذوي المذاهب الشاذة ، كما أن له وقفات فقهية لا يشرح فيها مذهباً ، ولكن يشرح وجهة الفقه الإسلامي ، وهي ليست مستفيضة ، ولكنها تنم عن مذهبه وعقيدته .

وفي حديثه عن **الإعجاز القرآني** لم يعن بالجانب البلاغي ، ولم يلتفت إلى ما في الآية القرآنية من حسن التعبير أو جمال التركيب أو اختيار اللفظ ، **وهذا ما لا ينتظر من رجل اللغة والنحو ، ولكنه ـ على نحو ما يفعل المبرد في كامله ـ يوضح المعنى المستفاد من التركيب ، ويوضح الفرق بين التعبير القرآني ، والتعبير الذي كان يمكن أن تكون عليه الجملة لو قدم فيها اللفظ أو أخر ، أو جيء بكلمة غير التي جاءت** .

وجانب آخر عني به وهو إخبار القرآن عن القرون الخالية والأمم الماضية ، وحديثه عن الكتابيين ، ذلك أن **رسول الله** ﷺ أمي ، لم يقرأ كتاباً ولم يجلس إلى معلم ، فإخباره بهذه الأحداث لا يكون إلا من قبل الوحي ، وهو من أدلة رسالته وصدق دعواه النبوة ، وقيمة الكتاب الكبرى ومنهجه الأساسي هو المنهج اللغوي الذي نال به مكانته بين المفسرين واللغويين ، حتى إننا نجد بعض كتب التراجم تعرف **الزَّجَّاج** بأنه صاحب كتاب : « **معاني القرآن وإعرابه** » ومعظمها حين تذكر كتبه يضع هذا الكتاب في رأس القائمة التي تسردها ، والمعروف من كتبه لا يتجاوز أربعة عشر كتاباً .

والمفسرون الذين جاؤوا بعد الزَّجَّاج اتخذوا شروحه اللغوية قواعد ثابتة ، فاكتفوا بالرجوع إليها أو نقلها ، ويكفي أن يرجع إليه أمثال : **القرطبي ، والبغوي ، والرازي ، وابن الخازن** : والأمر كذلك عند الأدباء واللغويين ، وقد

□ المفسرون الذين جاؤوا بعد الزجاج اتخذوا شروحه اللغوية قواعد ثابتة ..

□ لايزال التفسير اللغوي فصلاً غير مستوفى في مكتبتنا العربية ..

ذكر البغدادي في مقدمة موسوعته « **خزانة الأدب** » أنه اعتمد على تفسير **الزَّجَّاج** واكتفى به ، ونجد أن **ابن منظور** في لسان العرب ينقل آراءه وشواهده في هذا الكتاب نقلاً وينسبها إليه : ولمن شاء أن يرجع إلى ما كتبه في مادة « **سفه** » فهو نقل من هذا الكتاب ، والمشكلة في الآية هي أن الفعل « **سفه** » فعل لازم كفرح وخَجِلَ ، وبهذا يكون نصب « **نفسه** » بحاجة إلى توجيه ، فإما أن يكون الفعل متعدياً ، ونفسه مفعولاً له ، أو يكون لازماً فتكون نفسه .. تمييزاً ، والتمييز لا يكون مُعرَّفاً .

وهناك أيضاً توجيهات إعرابية في بعض المسائل التي تفرقت فيها آراء النحويين ، فنجد الكثيرين يؤثرون رأي **الزَّجَّاج** ، ومع أن هذه المسائل أصبحت غريبة على أبناء هذا الجيل إلا من يعنيهم هذا الدرس النحوي اللغوي ، أوثر أن أشير فقط إلى بعض منها :

ففي الآية الكريمة :

﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً** ﴾ ، نجد المبتدأ اسماً موصولاً لجماعة الذكور ، وهو « **الذين** » ولكننا نجد الخبر جملة فعلية يربطها بالمبتدأ ضمير النسوة « **يتربصن** » .. - وكان القياس أن يكون « **يتربصون** » - وفي توجيه هذا الإعراب يؤثر الكثيرون رأي **الزَّجَّاج** .

ومثل هذا ما جاء في الآية الأخرى :

﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ...** ﴾ ، وهي مجرد أمثلة أضعها أمام القارىء المتخصص ولا داعي لشرحها : وكل ما أريد هو الإشارة إلى قيمة الكتاب وسر ولع العلماء به وتقديره .

فإذا كان هناك بعد هذا من يتقرب إلى الله بحبس هذا الكتاب فالله وحده حسيبه ، ولست أكافىء أحداً ولا أملك عقاباً .

وأثار هذا الكتاب جدلاً من ناحية أخرى ، فإن « **أبا علي الفارسي** » العالم النحوي اللغوي المشهور ألَّف في نقده كتاباً كبيراً هو كتاب « **الإغفال** » يريد به ما أغفله **الزَّجَّاج** من الشواهد أو الأعاريب : والفارسي تلميذ **الزَّجَّاج** ، تلقى عليه هذا الكتاب وهو في سن مبكرة جداً ، ولم يكتب نقده إلا بعد موت **الزَّجَّاج** بزمن ، وكتابه كبير قيم حقاً ، ولكنه لا يغض من قيمة كتاب **الزَّجَّاج** ، وبعض نقوده لا تتعلق باللغة ولا بالنحو بل هي أدنى إلى أن تكون مصادمات من شاب يريد إظهار شخصيته .

من ذلك أن **الزَّجَّاج** في بداية كتابه شرح البسملة ، ولكنه قال : **إنه تأدباً مع الله تعالى لا يشرح اسم الجلالة ولا يبين اشتقاقه** » فتركه ، فقال **أبو علي الفارسي** :

إنه عندما وصل إلى سورة الحشر وفيها :

﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...** ﴾ شرح أسماء الله تعالى ، وأنه لا فرق بين الله والرحمن .. وهذا نقد يتجه إلى شخص المؤلف لا إلى كتابه ، ولكنه ناقشه أيضاً في بعض نقوله عن سيبويه وتوجيهه رأيه ، وفي بعض هذه المناقشات يبدو فعلاً أن **الفارسي** درس كتاب **سيبويه** دراسة أعمق من صاحبه ...

وبوجه عام لا أريد الإفاضة في شرح محتويات الكتاب ، وإنما أردت تعريفاً بكتاب قيم في مكتبتنا العربية ، قدره بعض المستشرقين وبذلوا جهداً مشكوراً لإحيائه وإبرازه للقراء ، وحاربه بعض الشرقيين المسلمين ، وبذلوا جهداً غير مشكور في سبيل إخفائه وحجبه .

هـــــوامش :

(١) الدكتور سزكين تركي يعيش الآن في المانيا الغربية ، وهو مشغول بإخراج موسوعة عن الفكر الإسلامي قد تزيد على عشرين جزءاً ، يتابع عمل بروكلمان ومنهجه في معجمه الكبير .

(٢) الدكتور « لنجس » تسمى بعد إسلامه باسم « أبو بكر سراج الدين » - وقد لاقى في سبيل إسلامه عنتاً كثيراً .